ومنه أيضاً قوله : .

لئن خاب ظني في رجائك بعدما ... ظننت بأني قد ظفرت بمنصف .

فإنك قد قلدتني كل منةٍ ... ملكت بها شكري لدى كلّ موقف .

لأنك قد حذرتني كل صاحبٍ ... وأعلمتني أن ليس في الأرض من يفي .

وكان السبب في تقدمه في الدولة المصرية أنه دخل بعد مقتل الظافر إلى مصر وقد جلس الفائز وعليه أطمارٌ رثة وطيلسان صوف أخضر فحضر المأتم وقد حضر شعراء الدولة فأنشدوا مراثيهم على مراتبهم فقام في آخرهم وأنشد قصيدة أولها : .

ما للرياض تميل سكرا ... هل سقيت بالمزن خمرا .

إلى أن وصل إلى قوله : .

أفكربلاء بالعرا ... ق وكربلاء بمصر أخرى .

فذرفت العيون وعج القصر بالكباء والعويل وانثالت عليه العطايا من كل جانب من الأمراء والحظايا وحمل الوزير إلى منزله جملة من المال وقال : لولا المأتم لجاءتك الخلع .

وكان على جلالته أسود الجلد جهم الوجه ذا شفة غليظة وأنف مبسوط سمح الخلق كخلقة الزنوج قصيراً . قال ياقوت في " معجم الأدباء " حدثني الشريف محمد بن عبد العزيز الإدريسي عن أبيه قال : كنت أنا والرشيد والفقيه سليمان الديلمي نجتمع بالقاهرة في منزل فغاب عنا الرشيد يوماً وكان ذلك في عنفوان شبابه فجاءنا وقد مضى معظم النهار فقلنا له : ما أبطأ بك عنا ؟ فتبسم وقال : لا تسألوا عما جرى . فقلنا : لا بد وألححنا عليه فقال : مررت اليوم بالموضع الفلاني وإذا امرأة شابة صبيحة الوجه وضيئة المنظر حسانة الخلق ظريفة الشمائل فلما رأتني نظرت إليّ نظر مطمع لي في نفسها فتوهمت أني وقعت منها بموقع ونسيت نفسي وأشارت إلي بطرفها فتبعتها وهي تدخل في سكة وتخرج من أخرى حتى دخلت داراً وأشارت إلي فدخلت ورفعت النقاب عن وجه كالقمر في ليلة تمامه ثم صفقت بيديها منادية : يا ست الدار فنزلت إليها طفلة كأنها فلقة قمر فقالت لها : إن رجعت تبولين في الفراش تركت سيدنا القاضي يأكلك . ثم التفت إلي وقالت : لا أعدمني ا فضل سيدن القاضي أدام ا عزه فخرجت وأنا خزيان خجل لا أهتدي الطريق .

قلت : ومن هنا نقل الصاحب بهاء الدين زهير تلك الحكايات التي كان يعضها على نفسه .

وفي القاضي الرشيد C تعالى يقول محمود بن قادوس الشاعر يهجو : .

إن قلت من نار خلق ... ت وفقت كل الناس فهما .

قلنا صدقت فما الذي ... أطفاك حتى صرت فحما .

وقال فيه أيضاً : .

يا شبه لقمان بلا حكمةٍ ... وخاسراً في العلم لا راسخا .

سلخت أشعار الورى كلها ... فصرت تدعى الأسود السالخا .

ولما اتصل بملوك مصر وتقدم أنفذوه رسولاً إلى اليمن ثم قلد قضاءها ولقب بقاضي قضاة اليمن وداعي دعاة الزمن ثم سمت نفسه إلى الخلافة فسعى فيها وأجابه قوم إلى ذلك وسلموا عليه بها وضربت له السكة على الوجه الواحد " قل هو ا أحد " وعلى الآخر " الإمام الأمجد أبو الحسين أحمد " ثم قبض عليه ونفذ مكبلاً إلى قوص فدخلها وهو مغطى الوجه وهم ينادون عليه بين يديه : هذا عدو السلطان أحمد بن الزبير وكان الأمير بها طرخان سليط اللسان وكانت بينهما ذحولٌ قديمة فحبسه في المطبخ وكان ابن الزبير قد تولى المطبخ قديماً فقال الشريف الأخفش يخاطب ابن رزيك : .

تولى على الشيء أشكاله ... فيصبح هذا لهذا أخا .

أقام على المطبخ ابن الزبي ... ر فولى على المطبخ المطبخا .

فقال بعض الحاضرين لطرخان : ينبغي أن تحسن إليه لأن أخاه المهذب قريب من قلب الصالح وما يستبعد أن يستعطفه عليه فتقع في خجل فلم يمض على ذلك غير ليلة أو ليلتين حتى ورد كتاب الصالح على طرخان يأمره بالإحسان إليه فأحضره من محبسه مكرماً فجاء إليه وزاحمه في رتبته .

وأما سبب مقتله فلميله إلى أسد الدين شيركوه لما قدم مصر ومكاتبته له فاتصل ذلك بشاور وزير العاضد فطلبه فاختفى بالإسكندرية واتفق التجاء صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الإسكندرية ومحاصرتها فخرج ابن الزبير متقلداً سيفاً وقاتل بين يديه وكان معه مدة مقامه فتزايد وجد شاور وجد في طلبه فظفر به فأمر بركوبه على جمل وعلى رأسه طرطورٌ ووراءه جلواز ينال منه وهو ينشد :